

النجم الهارب (جريتا جاربو)

اسم منطلق من إشراقة العصر الفضى، ثم الذهبى للسينيما العالمية ، ومن تاريخها المحفوظ فى الذاكرة ، المدون فى الوثائق ، المطبوع فى الأفلام . وهو اسم يدل على نجم: سرعان ما ظهر فى الأفق ، وسرعان ما علا ولمع ، وسرعان ما توارى عامدا واختفى .. وهذا أمر فى دنيا الفن عجيب !

ومشهدٌ لا يُنسى ..



معطف من الفراء ذو ياقة عالية تشبه ذيل الطاووس المنتفش تبدو فيه وكأنها قيصر أو إمبراطورة فى المنفى . النظرات بعيدة المرمى ، هائمة فى سحاب أو ضباب ، تنطلق من عينيّين

براقتين كأصداف البحر . بقوامها الفارع المشوق تخرج من مصعد مزّين بزخارف عصر الروكوكو (١) ، وقد انفتحت ضلفتى بابه بهدوء فاتر بطيء كأنهما مسرح الأوبرا . فتظهر « النجمة » أخيرا .. وأخيرا جدا ، متألقة على الشاشة ، ثم تمشى وكأنها تخطو نحو أعالي الفضاء ، تحمل معها قلوب المشاهدين المبهوتين

(١) طراز معمارى (Rococo) ساد فى أوروبا خاصة فى ألمانيا فى القرن ١٨ ، ويتميز (حتى فى الأثاث المصاحب له) بوفرة زخرفية رومانسية ذات خطوط متموجة أو منحنية ، وبذخ فى الألوان والتذهيب والتجميل .

الذين طال انتظارهم لرؤيتها منذ بداية عرض فيلم « الفندق الكبير » - إنتاج ١٩٣٢ -
أحد أفلامها الأكثر قيمة وعذوبة ، وأحد أفلام شركة مترو الأكبر نجاحا وشهرة ،
فتفّاح بجدارة في اجتياز مغامرة فنية جريئة ذكية : بالظهور - وهى بطلة الفيلم -
على الشاشة بعد خمس وأربعين دقيقة من بداية العرض . إنه امتياز خاص
«بالإمبراطورة»، لم يجرؤ من قبل نجم سينمائي في أى بلد من العالم - ولم يحدث
من بعد - أن يغامر بمثل ذلك . ومَضَّت - بوجهها الناصع المحتمى في حياء وراء
خمار شفاف أسود تَعَبُرُ الدهليز برشاقة ودلال وقور ؛ وفي طريقها مالت قليلا
برأسها تحية لنجمة الباليه الشهيرة جروسينسكايا ، ثم تابعت طريقها في خطوة
العمالقة نحو جناحها بالفندق ، حوائطه مغطاة بقماش التافتا اللامع الموج ، تاركة
معطفها الأسود الفاخر ينزلق من فوق كتفها ليسقط على الأرض الخشبية
(الباركيه) ، فَبَدَّتْ في « بيجاما » ذات بريق متألّيء ، ثم أسرعَت تندسُّ في سرير
مغطى بملاءات من الحرير الساتان الأبيض . وهنا ، انحدرت من بين شفيتها كلمات
بصوت رنّانى (١) لا يضاهاى ، كأنما تُسَمِعُ بها نفسها قبل أن يسمعها الجمهور
المتحفز . إنها كلمات تلخص تماما قصة حياتها هى بأجمعها ، تصلح أن تكون
عنوانا لها . قالت ، وهى ترفع قليلا جفنى عينيها المثقلان بالمساحيق ، وفي نغمة
مبحوحة قليلا صادرة من الأعماق .. من بئر الزمن :

- أريد أن أكون بمفردى ... I want to be alone .

لن تستطيع كلمات أخرى أن تحكى ، وتعبّر ، وتصور أفضل من هذه الجملة
القصيرة التى أوجزتْ فأجملتْ مصير هذه السويدية الشابة ، الفريدة في عالم
السينيما ، وأكثر نجوم هوليوود غموضا ، وأكثر نساء العالم الشهيرات في عصرها
تدثُرًا بالأسرار .

(١) المعروف في طبقات الأصوات باسم « contralto » ، وهى أقل صوت خفيض في غناء النساء .

وما أسرارها ؟ وفي أى سماء يدور هذا النجم الغريب المرغوب ؟ قد لا يخرج في مداره عن ثلاث : جمهور متملق ؛ وميل إلى العزلة ؛ واستغراق كامل في الحب . تلك هى جريتا جاربو ، التى اختارت لحياتها أن تلعب - فى الخيال - أدوار الغائبين عن الواقع ، وألاً تكون حاضرة فى الواقع إلا أثناء تلك اللحظات من الصفاء المتعالى .. فقط على الشاشة !

ومع ذلك ، لم تكن بدايات « جريتا جوستافُصَن » ، التى وُلدت عام ١٩٠٥ ، بائعة علب الكبريت فى الشوارع والحوارى ، لم تكن تُنبئ مطلقاً - ولو فى الخيال - عن مستقبل بهذا الثراء والأبهة والشهرة العالمية الطنانة . كانت الابنة الثالثة لكناس أَرُصفه ، فى أدنى مستويات المجتمع السويدى شمال العاصمة ستوكهولم ، بين فئات من شراذمة أغلبهم عاطل قاتل شريد طريد . لم تجد حرجاً وهى فى سن الخامسة أن تخرج من مسكنها - وهو حجرة رطبة عفنة فى بדרوم معتم بلا كهرباء تتكدس فيه الأسرة - لكى تتسول فى طرقات الأحياء الراقية من العاصمة . وفى سن السادسة عشرة ، مع بداية النضارة والشباب وقد بلغت من الطول متراً وستة وسبعين سنتيمتراً، عملتُ فى صالون حلاقة ، ثم فى متجر كبير للملابس . وإذ كان يتردد على المتجر الفاخر نساء ورجال من الأثرياء والمرموقين المتأنقين الكرماء ، فقد زأغ بصرها منطلقاً فى الخيال وحُلم اليقظة اللذيذ البعيد : لماذا لا تصبح هى يوماً مثل هؤلاء «السادة» من « نجوم » المجتمع وسُراة المشاهير ؟! ماذا يمنع ؟.. ما أكثر الذين يفاخرون بأحسابهم وأنسابهم - وحتى بعروشهم وتيجانهم - وهم فى الأصل البعيد ، وربما القريب ، كانوا لا شىء ، أو كانوا شيئاً أفضل منه اللاشئ .. أليس أصل الشجرة السامقة الضخمة - عند الجذور - بذرة فى أرض سبخة ، وربما كانت عفنة؟! .. أئُّ باب إذن تستطيع أحلامها التسلل منه ؟؟

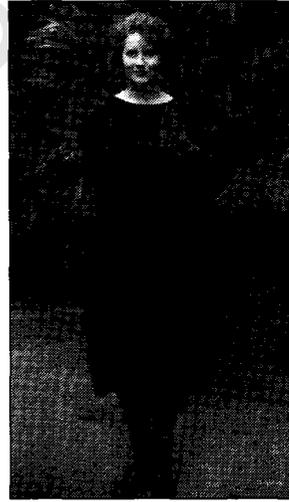
أعطتها سيدة من « الزبائن » المتأنقين الكرماء مفتاح هذا الباب : حددتُ لها موعداً مع مخرج سينيمائى سرعان ما سُرَّتْ به وسرَّتْه ، فأعطاها دوراً ثانوياً بسيطاً ،

مجرد إعلان يُظهرها على الشاشة تلبس « مايوه » للسباحة قصيرا أسود ، فتدور ثم تقف مختالة به على الشاطئ ، ثم تسبح قليلا في الماء . لم تجذب انتباه أحد . لكنها لم تيأس ، فهي تُصر على أن يصبح الحلم حقيقة وقد انفتح لها الباب ولو مؤاربة ، فلن تخرج منه.. الآن على الأقل !

التحقت بدورة تدريبية دراسية للتمثيل ، فجذبتُ انتباه « المعلم » . إنه المخرج السينيمائي موريتز ستيلر ، له مكانة وشهرة ، فيصير « المعلم المرؤض » أو بيجميليون، كما في مسرحية برنارد شو . ضمَّها إليه ، وتولَّى رعايتها ، أقنعها بتخفيف وزنها عشرة كيلو جرامات ، ودربها على كيفية الوقوف والتحرك أمام الكاميرا ، وعلى التخاطب بلا كلام مع آلة التصوير.. أى مع الجمهور . منحها اسما جديدا : جاربو . إنه اسم خفيف ظريف ، معناه في لغة النرويج : جنية الأساطير الطيبة الحسنة ؛ وفي الإسبانية والفرنسية والإنجليزية : النعمة ، والمنة ، والفضل ، والحُسن ، والزينة ، والرشاقة ، والبهاء ، والصفاء .. كل ذلك تدلُّ عليه (أو تدلُّ به) كلمة واحدة ! كالماصة المتعددة الأضلاع البراقة حين يسقط عليها شعاع ضوء فتشع ألوانا بديعة !



صورتان لجريتا في سنوات العشرينيات أيام الشباب الباكر والخروج من معاناة البؤس والفقر إلى الوقوف أمام الكاميرا



جريتاً جاربو.. ميلاد جديد.. وليختف الماضى ، يموت ، يُدفن ، يندثر بلا عودة! فتظهر فى أول أفلامها المدونة فى ذاكرة التاريخ السينمائى : « أسطورة جوستا برلينج » وهى تؤدى دور الكونتيسة إليزابيث التى تساعد قسًا على إثبات براءته ورد اعتباره . إن وجهها مكتنز سمين الخدين ، والمكياج كثيف سىء ، ومع ذلك ، فهى تلمع وتُشع ، كما لو كانت مضاءة على الدوام من الداخل !

من هوليوود - على الجانب الآخر من الأطلنطى - سافر إلى أوروبا « لوى ماير » رئيس مجلس إدارة شركة مترو جولدين ماير السينمائية وأحد أصحابها . تجوّل فى أنحاء أوروبا للتعاقد مع كبار المخرجين والممثلين الأوروبيين لمجموعة أفلام عالمية جديدة . فاشترط موريتز ستيلر أن تكون بطلته فى الأفلام التى سيخرجها لمترو : جريتاً جاربو ، تلميذته الصاعدة الواعدة . لا بأس !.. وافق ماير إذ رآها جذابة حسنة ، وإن كان فى عضلة ساقها بروز ، لكنه الآن لا يعيب ، أما فى المستقبل القريب فسيكون سبباً فى انصراف السينمائيين عنها . هكذا قدر .. وقد أخطأ !



جاربو مع روبرت موننجومرى فى فيلم « الإمبراطورة »
- ١٩٣٠



سنة ١٩٢٩ مع نيل أستر فى فيلم « حق الحب » ...

جذبت إليها الجمهور بشدة منذ الفيلم الأول لها في هوليوود : « السيل » - عام ١٩٢٦ . رآها ملفوفة بالحريز ، مجعدة الشعر ، في نضارة الزنبق ، وحاجبيها ممتدين بنعومة في جمال فرعونى ساحر . ومنذ البداية أيضا ظهرت شخصيتها المتميزة ، بعد أن حددت ملامحها الخارجية مهارات فناني الماكياج ، وتصفيف الشعر ، والأزياء ، والإضاءة : امرأةٌ محبة ، تُلقي بقلبها حيث يهوى دون انتظار لمقابل ، وإلى أبعد مدى ، متجاوزة المثالب والعقبات .

وتتتابع الأفلام الصامتة في السنوات التالية : « المغوية » ، « اللحم والشيطان » ، تُظهرها ك مخلوق مقهور بالعاطفة ، بالحب الصادق ، وليست مبتذلة مأجورة ، كما أنها ليست شيطانة شائنة . إنها حُلْم من الصخر ، ضباب صُلْد .. حيناً به تصطدم ، وأحياناً فيه تتوارى .

أخفى ستديو مترو تماماً ماضيها البائس ، وصمت عن طفولتها المشردة ، فأثار الفضول وحب الاستطلاع . وبطبيعة أهل الشمال الغالبة التي تتحفظ وتحتاط من الناس الغرباء ، رفضت الممثلة الرصينة منذ البداية أن تلين مع الصحافة . فأقامت من حولها ساترا ، حاجزا رقيقا لكنه متين منيع ، ورفضت بحزم حاسم أن تتسلل كاميرات الصحف المتطفلة لكي تصورها - كالعادة مع الأخريات - في البيت ، ممددة على الأريكة أو السرير ، أو في المطبخ ومُغتسل (بانيو) الحمام . إنها في سلوكها طراز خاص ، وذات مزاج متفرد : تريد أن تمارس عملها .. فقط عملها ، وأن يدعها الآخرون في هدوء لكي تجود هذا العمل . كما أنها تعتزم - في إصرار - أن تنمو وتزدهر في حقلها .. أن تعلق مصعدة في سمائها .. وأن تُحب ما تريد لكي تعيش أمنة راضية سعيدة . لا بد وأن تصون حياتها الخاصة على الدوام ، فتظل مستورة خافية كتومة .

لكن هوليوود لا تحب ذلك !.. وبيجميليون - الأستاذ المعلم - صار صديقا

ناصحا أمينا ، ولم يكن أبدا متيماً راغبا مشوقا ، لأنه كان منصرفا - بالقهر - عن مغازلة النساء . فكانت علاقتها الوحيدة ، مع البطل المشارك معها في فيلم « اللحم والديابول » . صورتُهما المشاهد ، يغوصان معا - ولم يغرقا - في بحيرة دافئة دافقة بالنشوة والمتعة ، لا يظهر على سطحها إلا ما يسمح به القانون الأخلاقي الصارم لمجتمع الثلاثينيات (الذي تخفف كثيرا الآن) . في ذلك الوقت ، في أمريكا المتطهرة المحافظة ظاهريا ، بدا أن جريتا جاربو تجسد المرأة التي تقاوم نداء الشيطان الملتهب وهو يستصرخ اللحم والدم ، وهي أبعد ما تكون عن الابتذال ، عن التدفق البركاني الغث ، وعن الإغواء الرخيص . إنها بارعة في تشخيص المرأة المحافظة في اعتدال وترفع . ثم فجأة ، تُدعِن للرجبة ، فتستسلم ، وتميل فتتشوق ، فتمنح الجسد والروح معا . في هذه المباراة الأبدية الكبرى في الإغراء والإغواء ، تصبح جاربو على الشاشة : الأولى ، البطلة ، النجمة . وتحافظ على موقعها : الأجل ، والأفضل .

لكن جاربو لم تعد تحب السينيما . هكذا رَوَتْ للقلائل جدا المقربين إليها . إنها أحببت فقط ما أضفته عليها السينيما من نعم كانت محرومة منها : الراحة ، ورغد العيش ، وليست النجومية أو الشهرة . وهي تحب « جون جيلبرت » ، وتطلب إخراج أكبر عدد من المساعدين الفنيين من الاستديو عند تصوير مشاهد عاطفية لها . وحرص « ويليام دانيلز » - مدير تصوير تسعة عشر فيلما من أفلامها السبعة والعشرين - على تحاشي تصويرها عن قُرب ، في لقطات مكبرة ، لأن كتفها عريضان نسبيا ويشبهان أكتاف الرياضيين من الرجال . فكان يضعها قدر ما يستطيع في إطار (كادر) بعيدة عن الكاميرا إذا كانت ستظل وحدها على الشاشة . إن سَمَتْها العام ، ومظرها النسائي الرجالي ، مع تفضيلها لارتداء « البنطلون » ، يُبرز بوضوح غرابة هذه الممثلة ويُعدها عن المؤلف . وهي تبدو دائما بسيطة ، حاملة ، عميقة التفكير في شيء بعيد غائر في الأعماق ، يورقها ويضفي عليها مسحة من الانقباض المضجر الحزين . وتُحذِر : فهي ترفض بشدة وحسم أن تترك نفسها نهباً للآخرين ؛

وتقيم حجابا حاجزا بينها وبين المعجبين؛ وتمتنع بإصرار عن مخالطة الحفلات العامة والتجمعات الخاصة؛ وتُعرض عن مصاحبة زميلات المهنة والزملاء.. عدا الممثلة «كاترين هبورن» التي تُؤثرها بالصحة. إنها حريصة كل الحرص على أن تكون منيعة، صعبة المقابلة، عصية الاستجابة لنداء. وهى - طوال حياتها منذ مولدها الفنى - لم تردّ على رسالة قط، ولم توقع مطلقا في دفتر تذكارات (أوتوجراف). إنها تجسيد كامل لنمط، لنوع سينيمائى يجتهد ما وسعه الجهد فقط في تحسين أدائه ليصل به إلى أرفع مستوى وأقوى تأثير - بأسلوب الرومانسية الهوليوودية - فتثير بسكونها وصمتها وعزلتها (أو بهروبها المتواصل) الكثير من الفضول، وتجنّى هى الأكثر من التقدير والمنافع. ولكى تصبح أكثر تفردا وبعدا عن الشائع المألوف، فإن الاستديو الذى وقّع معها العقد - والذى استجاب لكل مطالبها



ورغائبها ، وأضاف إليها المزيد : عيّن من أجلها موظفات يلفّقن (يخرعن وهما) حكايات عنها ، ويؤلّفن رسائل مزيفة تسأل وتناشد وتمتدح أو تنتقد وتستفسر ؛ وأيضا إجابات وهمية وتصريحات لم يصرح بها أحد ، بعضها على لسانها ، وتتسابق الصحف والمجلات في نشرها !..

من داخل هذا الغموض ، ومن كهف الأسرار التي تغلفها ، تعاضم سحرها وجاذبيتها ، خاصة في عام ١٩٢٨ ، عندما حدثت ثورة الفيلم السينمائي الناطق . ترددت جاربو كثيرا في منح صوتها للفيلم ، مخافة أن يدهش الجمهور ، وربما استاء من صوتها الأَجَش (المبحوح) قليلا . وأخيرا في عام ١٩٣٠ ، في فيلمها الرابع عشر « أنا كريستي » ، تكلمت جريتا جاربو . فكانت الكلمات القليلة (في جملتين فقط) التي نطقتُ بها ركيزة حملة إعلانية دعائية ضخمة : كانت جالسة أمام مائدة في حانة ، تتطلع إليها الأنظار وتترقب الأسماع التقاط كلماتها وهي تقول في استرخاء : « أعطنى كأسا من شراب .. ثم تهمس محدثة نفسها : «ولا تُغالى في الثمن»!.. إنه صوت قريب من صوت رجل . فكان التأثير على الجمهور متباينا . وانطلقت في كل مكان إشاعات وأقاويل ، لم تسلم منها حياتها الخاصة جدا بلا حياة أو مبرر، وبعض الناس يحلو له أن يرّجف بما لا يعرف ، أو ينتحل أكاذيب يروّجها ويقذف ، ومن العامة من يُصدّق ، ومن الحَسَدة من يلفّق ، وألسنة السوء لا ترحم ، فتزيد جاربو ابتعادا وانطواء وعُزلة . فلما مات «جيلبرت» ، أحكمت تباعدها وعزلتها، وآثرت الاحتجاب والوحدة، لكنها استفادت كثيرا من هذا الاعتكاف الإرادى المرشّد : فقد أكسبها رؤية شاملة ناضجة . ومراجعة متأنية واعية . فأصبحت أدوارها السينمائية بعد ذلك أرقى جمالا ، وأداؤها أبهى جاذبية ، وتعبيرها أبلغ وأصدق فى تصوير حياة امرأة تغالب مأساة الوجود . فتوالت بلا انقطاع أفضل أفلامها ، وكان أعظمها ثلاثة: «الملكة كريستين» (وفيه نصحتها المخرج «روبين ماموليان» - الذى غازلها فترة - أن تؤدى دور ملكة السويد بدون أن تضع أى

ماكياج على الوجه ، لأنها بذلك ستظل في صورة فتاة عذراء يكتب عليها كل متفرج ما يشاء له خياله ، ولقد أصاب : إذ بعد أكثر من ستين سنة كلما عرض الفيلم ، حدث ما توقّع !). ثم فيلم: « أنا كارنينا » (وفيه تظهر بوجه تحيط به هالة من ضوء الغروب تشع على الشاشة وتتألق في الخيال).. ثم فيلم : « كامي » ، وفيه تلعب دور ماجريت جوتيه، وتحضر هامسة في أذن روبرت تيلور : « ربما كان الأفضل هكذا .. لأنني سأحيا فيك ، في قلبك .. ومن الآن، وإلى الأبد لن ينالني سواك » .

ولعلها كانت نبوءة عجيبة ! إذ إنها بالفعل سرعان ما جعلتها واقعا وحقيقة . فهذه المخلوقة الفاتنة الضبابية، لم تعد تُرى في الحياة العامة ، ومحال أن تُخرق حياتها الخاصة.

في جراءة غامضة غريبة ، قطعت معظم الروابط ، ونسفت جُل الجسور ، فلا تخرج إلا متسللة في خفاء ، ومازالت في سن الثلاثين ، لكنها تعيش داخل شرنقة أو في أغوار حصن حصين . بعد فيلم «ماري فالسكا» الذي لعبت فيه دور عشيقة نابليون، ونوعت ملابسها المتنافسة في الشفافية والتموج ، رأَتْ أن رصيدها يتفتت .. يتناقص. ليس رصيدها من الشعبية وإعجاب الجماهير ، وإنما من الدخل وإيرادات الأفلام . فأفلامها التي تتكلف كثيرا تتراجع حصيلتها ، وشبح الحرب (العالمية الثانية) بدأ يترأى في سماء أوروبا . كانت جريتا تزداد تألقا - فنياً - وتمكنا ونجاحا، في حين أخذ يقل إقبال الجمهور العام على مشاهدة أدوار تبدو متشابهة لامرأة متوترة ، منطوية ، عبوس ، تخلد إلى رغائب وغايات ليس فيها جديد. لذا قرر الاستديو المتعاقد معها أن يُضفي عليها شكلا جديدا ، ويحوّل الغامضة المستريية إلى غنجة مرحة . فكان فيلم: « نيوتشكا » ، تؤدي فيه دور مفوضة (مندوبة أو قوميسير) الشعب السوفييتي، مخمورة في حانة مرقص ، تسب وتُهين - في سوقية مبتذلة - دوقاً روسية سابقة . وارتكزت الدعاية عن الفيلم على جملة

واحدة من كلمتين : « جاربو تضحك » !. ثم أعقبت ذلك بفيلم : « المرأة ذات الوجهين » ،
مثلتُ فيه دور مدربة انزلاق تجتهد في استعادة حب الزوج باللجوء إلى الفكاهة
والمرح . لكن النقد اللاذع انقضَّ على الفيلم بصرامة . فأسرعت جاربو موليةً .. إنه
فشل ذريع !



جريتاً جاربو تتقاسم البطولة مع شارل بوابيه في
فيلم : « ماري فالسكا » - ١٩٣٧ للمخرج
كلارنس براون .



في فيلم : « المكتتبه الحسناء » - ١٩٢٨ مع كونراد نوجل

فلما دقت نواقيس الحرب ، كانت جريتاً جاربو مشبَّعة إلى درجة الاختناق من
نظام إنتاجي يفرعها ويستغلها أسوأ استغلال ، وفي داخلها ، إحساس مؤرق بأنها
على وشك الانزلاق إلى هاوية الضمور الفني القاسي المرؤّع ، فاتخذت قرارها
المدهش الجريء : أن تتوقف !

إنها في سن السادسة والثلاثين ، والعالم كله موقن بأن أمامها سنوات وسنوات من التآلق والازدهار . لكن جاربو وحدها تؤمن بأن الزمن - مثل المشاعر والعواطف - لا يوقف زحفه القاهر . إنها نجمة ، لا يماثلها أحد ، باستثناء «مارلن ديتريش» في سماء النجوم، وقرارها بالتوقف ، معناه عزوفها عن الانتظار في صف (أو طاوور) الحسناوات الذابلات المسنَّات ، اللاتي يَسْبحن - اليوم أو غدا - في بحار جافة ، أو يحلّقن في خيالات بلا أجنحة ، تنفخ فيها بقية واهنة من رصيد الشهرة . كانت تدرك تماما أنها الممثلة الأكثر شهرة في العالم ، وأنها - بقرارها هذا - سوف تحكم على نفسها بنفسها بمزيد من الخفاء والغموض ، فيما تبقى من حياة قد تطول . ومن هنا ، فإن أسلوبها المدهش في الحياة بعد ذلك ، كان تحديا صارخا للدعاء الزاعم بأن الاختفاء عن الشاشة هو المرادف للموت الفنى . وأفلحت! .. فبعد أكثر من نصف قرن ، وبعد أن اختارت لنفسها أن تصير شَبَحًا ، دخلت بكل الحيوية والحرارة المتوهجة في عالم الأسطورة . وظلت الجماهير - من أدنى الأرض إلى أقصاها - تقابلها مصادفة بالسرور والاحترام والحُبور . وهى كمليونيرة ، عرفت جيدا - وبحصافة - أين تضع ثروتها ، وكيف تعيش حياتها كإمبراطورة سائحة متجولة . كان قرارها بلا رجعة عنه ولا نقاش فيه . وكانت خالية من مسببات الأطماع والأوجاع : فلا هم من ناحية المال، ولا غم من جانب القلب . فماذا تفعل يا تُرى ؟



في فيلم « الإمبراطورة » غيرت جاربو كثيرا من ملامح وجهها وملابسها وشعرها

في عام ١٩٤١ ، أرادت جاربو أن تنسحب من دنيا الناس لتعيش في عالمها هي ، وتفعل فقط ما يروق لها . رفضت الظهور بين الناس . تركت حقائبها ومتعلقاتها في الفندق الذي كانت تنزل فيه ، وتحاشت جميع المصورين والصحافيين ، وتخفت وراء نظارة كبيرة سوداء .. فعاشت هكذا نحو خمسة عقود .. خمسين سنة .. حياة المطارد الهارب، سعيدة بها راضية ، متمسكة بالتباعد والعزلة ، في شقتها بالشارع الثاني والخمسين بنيويورك ، التي تبدو من الخارج وكأنها خالية . لم تستخدم إلا نصف حجراتها السبع ، وستائرهما الكثيفة مُسدلة على نوافدها باستمرار ، وثلاثة تليفونات معطلة الأجراس ، فهي لم ترد على طالب ، ولم تُكلم إلا من كانت تطلب . وبعد رحيل خادمتها ، تولت بنفسها شراء حاجياتها ، وإعداد طعامها الذي كانت تراعى فيه الجانب الصحي . لم تهمل الرياضة ، ولا السباحة إن أتاحت لها الفرصة يوميًا ولو كانت في مياه الشواطئ الباردة أو شبه المتجمدة شتاء . ومع مرور السنوات ، أقلعت عن صبغ شعرها الرمادي ، واكتفت بصحبة صديقتها سيسيل دو روتشيلد ، تمشى معها في خطوات جُندي العرض العسكري ، تُعبر الطرق ، أو دهااليز متحف الفن الحديث . وتحاشت دور السينيما ، قاطعتها في حذر ، وامتنعت عن حضور أي حفل لتكريمها ، وربما شاهدت بين الحين والحين واحدا من أفلامها التي كان يعرضها التليفزيون . ولم تُلقِ بالا إلى العروض السخية التي لاحقتُها طمعا في إقناعها بكتابة مذكراتها أو بعض ذكرياتها . واكتفت بحياة التجوال والترحال ، شرقا وغربا في كل الدنيا ، تمقتُ أن تقابل أو تُعرف . فكانت تحجز تذاكر طيرانها وغُرف الفنادق باسمها الأصلي غير الشائع : جوستافُصن ؛ مثلما كانت تستدعي متطلباتها تليفونيا أو خطابيا باسم مستعار : مسز جيئ، أو مسز براون . أما الصديقات والأصدقاء ، فكانوا قلة محدودة للغاية ، من بينهم وينستون تشرشل - السياسي البريطاني الداهية العجوز - تجولت معه بين الجزر اليونانية ، وأقامت فترة في يخت الأحلام « كريستينا » الذي كان يملكه ويزهو به أرسطون أوناسيس ، وكان ذلك قبل أن يستضيف هذا اليخت : جاكى ، أو جاكلين كنيدي . في حياة زوجها (الرئيس جون كنيدي)، وفي أعقاب اغتياله بعد أن صارت جاكلين أوناسيس .

شغلت جريتا وقتها في جولاتها وتنقلاتها ، فكانت دائما تمضى سرا لا يشعر بها أحد ، ولا يسمع عنها أحد ، بعيدة عن الناس بمسافات ، لا تقترب منهم ولا تدعهم يتقربون . ومع تقدم الزمن ، لم تشعر بأنها تطوى سنوات العمر ، فلم تأبه بتغيرات العصر . فظل زيتها الطويل البسيط كما هو ، والمعطف الواقى من المطر ثابت الطراز ، وتسريحة الشعر لا تتغير ، ودائما .. دائما : النظارة الكبيرة السوداء ، تُخفى معظم ملامح الوجه ، الذى كان لابد أن يتغير .

وتظل «الهاربة» من الأضواء تجرى وتهرب من الناس كالمذعورة، على الرغم من أن وسائل الإعلام لم تتوقف عن الحديث عنها ، وعن إذاعة ونشر بعض أخبارها ، ومنها ما كان غير صحيح : مثل الزعم بأنها أصيبت بالعمى ، أو أنها تعالج بالكورتيزون . لكن الذين كانوا يكتشفون وجودها بينهم - في مكان عام أو عند شاطئ أو منتجع أو في عاصمة أو مدينة - فإنهم جميعا كانوا ينظرون إليها باحترام وتقدير لمشاعرها ، فلا يفسدون عليها الهدوء والاستمتاع بالعزلة .

في أوائل الأربعينيات ، بلغت جريتا جاربو قمة النجاح والشهرة ، وفي أواخر الثمانينيات تحدثوا عنها كطيف من الأساطير : غائبة لا تُدرَك ، سائمة لا تُمسك ، نائية لا تُطال . كان عليها أن تستمر في عزلتها الغامضة إلى نهاية العمر المقدور ، فلا تترك وراءها إلا صورتها المتوهجة في أفلامها السبعة والعشرين (وكلها أبيض / أسود) ، إلى أن كانت وفاتها في أبريل ١٩٩٠ .



تجاوزت جاربو سن الخامسة والسبعين وهى في عزلة على الشاطئ ، أو تسبح ، أو تمشى في لندن لا تكاد تُعرف .
